الفصل الرابع

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وتشعب المصطلح

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وتشعب المصطلح

كان من آثار علم اللغة التاريخي historical Linguistics (أو Linguistique Diachronique في مصطلح فردينان دوسوسير) منذ أواخر القرن التاسع عشر أن نشأت عدة اصطلاحات فنية مثل اللغة المكتوبة، واللغة المعيارية، واللغة المشتركة، واللغة الأدبية. وتشترك هذه الأشكال اللغوية جميعًا – مع ما بينها من اختلافات وما لكل منها من خصوصيات – تشترك في امتلاكها نصوصًا ووثائق ثابتة من الناحية التاريخية. وهذا ما يحرص عليه علم اللغة التاريخي، الذي يعتمد في تتبع نمو اللغة وتطورها على الأشكال المكتوبة من اللغة. وقد وصل هذا الأمر إلى أن المنهجين البحثيين في علم اللغة التاريخي، ونعنى بهما المنهج المقارن، ومنهج إعادة تركيب اللغة، قد أسسا على نحو كامل على ما وجد من وثائق مكتوبة. ومن حيث طبيعة البحث، فإن علم اللغة التاريخي لابد أن يعتمد على المادة المكتوبة بقدر اعتماد علم اللغة الوصفي على المادة الكلامية لمتكلمين أحياء[1].

وإذا أردنا تفصيل ذلك، فلنلاحظ ما يلي:

أولاً: أن اللغة المشتركة هي التي تعلو على التباينات اللهجية المحلية للغة بعينها. وهي أوسع من اصطلاح اللغة المكتوبة، وليست مرادفة لها كما يظن بعض الباحثين. إنها أوسع من اللغة المكتوبة بمعناها الاصطلاحي الدقيق؛ وذلك أنها يمكن أن تكون مكتوبة، كما يمكن أن تكون منطوقة. وهما شكلان مختلفان وإن انتميا إلى نظام لغوي واحد. ومن هنا يصح القول بأن كل لغة مشتركة هي لغة مكتوبة بالضرورة؛ لأن اللغة المكتوبة هي الطابع المميز للغات المشتركة، وليست اللغة المكتوبة بمفردها مرادفة للغة المشتركة.

والمعروف من التطور التاريخي للغات أن اللغة المشتركة تنشأ أولاً، وتنشأ عن لهجة أو لهجات محلية، مهما استغرقت نشأتها من وقت. وتشيع

(1) راجع: ماريوباي: أسس علم اللغة، ص١٦٤

اللغة المشتركة، وتكتسب مكانة خاصة بين أصحابها. وترجع تلك المكانة بالطبع إلى قدرتها على استيعاب موروثات الجماعة، وعلى إنجاز العمليات التبليغية بين أفرادها بنجاح، مهما تعددت وجوه هذه العمليات وطبقاتها.

وينبغي لنا أن نحترز هنا مع ما يزعمه فيرجسون Ferguson في إطار البحث في اللغة العربية: يزعم فيرجسون أن معظم اللهجات العربية الحديثة قد نشأت عن اللغة المبكرة عن طريق صيغة للعربية الحديثة يسميها بالعربية الوسطى Arabic Koine؛ وهي العربية التي لا تضاهي أية لهجة من اللهجات القديمة، والتي تختلف عن العربية الكلاسيكية Classical Arabic في كثير من الظواهر المهمة. ويرى فيرجسون أن هذه اللغة الوسطى كانت مستخدمة جنبًا إلى جنب مع اللغة الكلاسيكية أثناء قرون مبكرة من تاريخ المسلمين[1]. ونحن نرجح – على أساس ما تظهره لنا المقارنات بين اللهجات القديمة واللهجات المحلية الحديثة في بيئات لغوية عدة – أن اللهجات الحديثة لم تنشأ عن لغة مبكرة، وإنما هي امتداد للهجات القديمة، وإن كان لهذه اللغة الوسطى التي يتحدث عنها فيرجسون دور في صياغة اللهجات المحلية المختلفة، بشرط تصور إمكانية تأثر هذه اللغة الوسطى بالبيئة اللغوية التي استخدمت فيها، فلم تكن لغة وسطى واحدة في كل البيئات اللغوية العربية.

ثانيًا: تستخدم اللغة المنطوقة مقابلة للغة المكتوبة. وهما معًا شكلان متباينان إلى حد ما – مهما يكن بينهما من علاقات – لمستوى لغوي واحد من لغة واحدة مشتركة. ويقابلنا هنا اصطلاح آخر هو (لغة الكتابة)، الذي ينبغي له أن يكون مقابلاً لـ (لغة الكلام). وتتصرف (لغة الكلام) عادة – إذا أردنا ضبط الاصطلاح – إلى اللهجات المحكية للغة بعينها. ويعني هذا أن (لغة الكتابة) و(لغة الكلام) ليستا صورتين لمستوى لغوي واحد من لغة واحدة مشتركة. وإنما هما – في الأصل –

---

(1) Ferguson, Charles A., The Arabic Koine, in: Language, Journal of the Linguistic Society of America,
ed. by B. Bloch, Volume 35 Waverly Press, Inc. Baltimore U. S. A. (1959) pp. 616-360, p. 616

شكلان مختلفان ومستويان متمايزان، وإن انتميا – بالطبع – إلى لغة بعينها. وإذا أردنا مثالاً يوضح لنا ما سبق قلنا: إن العربية الفصيحة تمثل عندنا اللغة المشتركة، وهي لغة مكتوبة في الوقت نفسه، ولا يمنع ذلك من أن تكون لها صورة لغوية أخرى منطوقة فصيحة كذلك. فإذا قلنا: إنها مع كل ذلك لغة الكتابة، كنا نريد بهذا أن نفصل بينها وبين مستوى آخر عام – في إطار العربية – هو اللهجات العربية المحكية.

وغني عن البيان أن لغة الكتابة واللهجات الدارجة تنتميان إلى فترتين مختلفتين من تاريخ اللغة.

وإذا أردنا أن نخصص كلامنا عن العربية مرة أخرى في شئ من التفصيل، رأينا أن العربية – أينما نطقت اليوم أو كتبت – سوف تستخدم هاتين الصورتين اللغويتين كلتيهما جنبًا إلى جنب؛ فإلى جانب العربية الدارجة Umgangsarabisch، وهي لهجة عربية حديثة، هناك عربية الكتابة أو العربية الفصيحة، التي تحافظ على الصيغة اللغوية للعربية القديمة. ويستثنى من ذلك لغة جزر مالطة، التي تحولت فيها لهجة عربية حديثة إلى لغة كتابة، تكتب بأبجدية لاتينية خاصة. أما العربية الفصيحة، فليست معروفة هناك.

إن لغة الكتابة Schriftsprache تستخدم في الصياغة الكتابية للنصوص، ويعد استخدامها في الاتصال الشفهي العادي استخدامًا في غير محله؛ فاللهجة هي لغة الكلام (العادية). ولا تكتب هذه اللهجة إلا في مجالات خاصة. وتسري هذه الازداوجية اللغوية Zweisprachigkeit في المنطقة العربية بأسرها، وإن عرفت اللغة الفصيحة واللهجة كلتاهما اختلافات إقليمية.

والحق أن الازدواجية اللغوية في المنطقة العربية ازدواجية قديمة. فمنذ أن صارت العربية القديمة لغة الثقافة الإسلامية، وطوال العصور الوسطى حتى اليوم، كانت تلك هي الحال.

ومعلوم لدينا أن معرفة لغة الكتابة أو اللغة الفصيحة هي معرفة منحصرة في دائرة المتعلمين. إن معرفة اللغة الفصيحة تعني الانتماء إلى طبقة المتعلمين والمثقفين العليا. وربما لم تكن العربية القديمة لغة

الثقافة في عصر ازدهار الخلافة والحضارة الإسلامية العربية فحسب، بل كانت أيضًا لغة البلاط ودوائر المثقفين في العالم الإسلامي كله. ولم يكن كثير من العرب يفهمونها أو يتخاطبون بها، كما هي الحال اليوم أيضًا. ومن المؤكد أن اللغة الفصيحة في عصر الازدهار الحضاري قد تعلمها الناس على نحو أفضل وانتشرت بينهم انتشارًا أوسع. ولكن إجادة اللغة الفصيحة قد تضاءلت شيئًا فشيئًا في عصور التدهور الحضاري، لاسيما منذ بداية العصور الوسطى المتأخرة (حوالي القرن الثالث عشر الميلادي)، حتى إذا كان القرن الثامن عشر زاد هذا التضاؤل وبعد مداه.

لقد بات معروفًا تقسيم الاستعمال اللغوي إلى هاتين الصورتين، إذ أصبحت اللغة الفصيحة لغة الكتابة الأساسية، وصار يؤول إليها كل ما يتعلق بالمكتوب. إنها لغة الخطاب الشفهي الرسمي، ولغة الشعائر الدينية، والخطاب الديني، والخطب المنبرية، والمناقشات البرلمانية، والمحاضرات. وباختصار: إنها لغة جميع الصور التي ليست في أساسها خطابًا حرًا freie Rede بل خطابًا أعد وصيغت أفكاره من قبل. وعلى العكس من ذلك، فإن اللهجة هي لغة الحوار اليومي. إنها اللغة الدارجة بين المتعلمين والأميين. ومن الطبيعي أن تكون هناك انتقالات بين مجالات الاستخدام تلك، وهي انتقالات تقع عن طريق التداخل المتبادل بين اللغة الفصيحة واللغة الدارجة. إن الخطاب الشفهي للطبقات العليا يضم عناصر من اللغة الفصيحة أكثر مما يضمه خطاب الطبقات الدنيا التي تنتمي إليها نسبة مئوية عالية جدًا من الأميين. لقد صار الوضع الراهن حقًا على النحو الذي يصوره المستشرقان الألمانيان فولف ديترش فيشر W. D. Fischer وأوتوياسترو O. Jastrow في كتابهما الرائع "المرجع في اللهجات العربية"؛ والناطقون بالعربية لا يأخذون أنفسهم في خطاباتهم اليومية Alltagsrede ولا في أحاديثهم العفوية الحرة in freie formulierter spontaner Rede بالنظام النحوي للغة الفصيحة. وقد أخذت أجهزة الاتصال الفنية في الآونة الأخيرة في طرح هذه القضية للبحث؛ فاللقاءات، والمؤتمرات الصحفية، والمناقشات السياسية تجري

فيها بالخطاب الشفوي الحر، حيثما يستوجب الموقف الرسمي استخدام اللغة الفصيحة[1].

ثالثًا: من ناحية أخرى ينبغي لنا أن نفرق بين اللغة المشتركة Common Language وما يسمى باللغة المعيارية Standard Language؛ فليست إحداهما مرادفة تمامًا للأخرى، على رغم ما يقع بينهما كثيرًا من تداخل أو إحلال. لقد استخدم اصطلاح اللغة المعيارية – كما يقول هانز جلينتس Hans Glinz – منذ أكثر من تسعة عقود – على أنه اصطلاح محايد، يحل غالبًا محل الاصطلاح المعروف: اللغة الفصيحة.

ويعرف ييجر Jaeger اللغة المعيارية بأنها اللغة التي تستخدمها الطبقات الاجتماعية العليا والمتوسطة.

ويرى جلينتس أن لاصطلاح (اللغة المعيارية) مزيَّة معينة؛ فاللغة المعيارية تضم الاستخدام المكتوب والاستخدام الشفهي في آن معًا، وذلك على النقيض من الاصطلاح الآخر: (لغة الكتابة)، التي نجدها في الكتب المدرسية. من ناحية أخرى، يرى جلينتس أن اصطلاح اللغة المعيارية ينأى عما تثيره كلمة (فصيحة أو عالية) التي قد يساء فهمها بين الناس على أنها الصيغة اللغوية الأعلى اجتماعيًا.

وهكذا يريد جلينتس أن يجعل اللغة المعيارية مشتملة على اللغتين: المنطوقة والمكتوبة معًا. يقول:

"وأنا أفهم من التسمية (اللغة المعيارية الألمانية المعاصرة) اللغة الألمانية المسموعة والمقروءة، المنطوقة والمكتوبة اليوم، مادامت هذه اللغة المعيارية مستخدمة استخدامًا عامًا، ومادامت غير مستخدمة في صورتها العامية، ومادامت غير مستخدمة على أنها مقيدة بطبقة اجتماعية خاصة"[2].

---

(1) Fischer, Wolfdietrich / Jastrow, Otto, Handbuch der arabischen Dialekte, Otto Harrassowitz, Wiesbaden (1980) SS. 20-21

(2) Althaus, Peter / Henne, H., / Wiegand, H., Ernst (Hrsg.). Lexikon der Germanistischen Linguistik, 2., Auflage, Max Niemeyer Verlag, Tuebingen (1980) SS. 609-610

وتفرقة جلينتس السابقة بين اللغة المعيارية ولغة الكتابة أمر بديهي؛ وذلك أن الأولى أوسع من الثانية كما نعرف. وهو يؤثر اصطلاح اللغة المعيارية على اللغة الفصيحة، لاعتبارات ترتبط بالتسمية التي تطلق على اللغة الفصيحة في الألمانية، وهي Hochsprache؛ فالترجمة الحرفية لهذه التسمية هي (اللغة العالية) بما قد يعلق بها من تمايز اجتماعي لصيغتها اللغوية مقارنة بصيغة أخرى. وهي إشكالية لغوية لا تعرفها العربية.

وينبغي هنا ملاحظة أن تعريف جلينتس للغة المعيارية – وهو التعريف الأشيع بين اللغويين المحدثين[1] – يسمح لها بأن تضم في كنفها مفهوم (اللغة الموحدة) أو (اللغة المشتركة) التي تتجاوز عادة مؤثرات إقليمية محددة.

وإذا عدنا إلى التفرقة بين اللغة المشتركة واللغة المعيارية (وتشترك إحداهما مع الأخرى في اشتمالها على صورة مكتوبة وصورة منطوقة) لاحظنا ما يلي:

(أ) أن اللغة المعيارية لغة مشتركة بالضرورة.

(ب) أن المعيار يتخذ من عصر بعينه من عصور اللغة، ثم تقاس عليه الاستعمالات اللغوية في عصور أخرى تالية.

(ج) أن اللغة المعيارية ترتبط ارتباطًا أساسيًا بالجانب القواعدي للغة كما يصفه النحاة. أما اللغة المشتركة فتطلق – بجهة عامة – على اللغة التي تتجاوز الخصائص اللهجية المحلية. وتكتسب هذه اللغة ميزة الشيوع والعمومية، وتدين لها اللغة المعيارية باستخلاص قواعدها المعيارية.

(د) أن اللغة المشتركة تمتلك أكثر من مستوى لغوي، وتتفاوت هذه المستويات فيما بينها من حيث الاقتراب من المعيار أو الابتعاد عنه.

(هـ) أنه في إطار اللغة العربية، بنيت العربية المعيارية (أو عربية النحاة) على أساس مادة القرآن الكريم والشعر القديم حتى عصر الاحتجاج.

---

(1) قارن مثلاً: Schank / Schoenthal, op. cit., S14

وهي عربية أدبية أو عربية ذات طبيعة أدبية فنية. ومن هنا يصعب أن نجعلها اللغة المشتركة بين الناس آنذاك. إنها بالأحرى لغة الكتابة الأدبية التي يفهمها ويكتب بها سائر الشعراء، وربما كانت هذه اللغة مفهومة عند كثير من الناس، ولكنهم لم يكونوا قادرين على التخاطب بها.

ولم تكن لغة الحياة اليومية المتداولة بينهم في شئونهم ومخاطباتهم غير الرسمية[1].

والراجح أن اللغة المشتركة - بهذا المفهوم الذي أشرنا إليه - كانت ما عناه فيرجسون باللغة الوسطى Koine. وهي لغة متجانسة نسبيًا، لاتضاهي لهجة بعينها من اللهجات القديمة، وتختلف عن العربية الكلاسيكية أو عربية النحاة التي اتخذت المعيار المقبول للعربية المكتوبة والمنطوقة معًا في كثير من ظواهرها.

وقد تطورت هذه اللغة إلى صيغة للمحادثة في العربية a conversational form of Arabic، وانتشرت في معظم أرجاء العالم الإسلامي منذ القرون الأولى من تاريخ المسلمين[2].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن اللغويين العرب القدماء – وهم يتفقون في ذلك مع أسلافهم النحاة الهنود القدماء – قد انصرفوا إلى وصف اللغة الأدبية المعيارية، ولم يهتموا بالكلام الدارج vernacular المنطوق حولهم. لقد كان غرضهم – كما يقول فيرث Firth – هو الحفاظ على نقاء اللغة المقدسة sacred Language من أن يفسدها العامة، ومن السهو والخطأ؛ ليمكنوا الناس من النطق والكشف عن قدسية لغة القرآن الكريم وخلودها. وكذلك كانت الحال مع اللغة السنسكريتية. ويشير

---

(1) يشير شانك / شونتال إلى أن اصطلاحي اللغة الدارجة Umgangssprache ولغة الحياة اليومية Alltagssprache يدخلان غالبًا في علاقة تخالف مع اصطلاح اللغة الفصيحة Hochsprache، حيثما يكون للغتين الأوليين قيمة سلبية، بمعنى أنهما انحراف عن اللغة الفصيحة:

Schank / Schoenthal, op. cit., S. 15

(2) Ferguson, op., pp. 616-617

فيرث إلى أن هؤلاء الذين يعتقدون بتعسفية المعياريات اللغوية arbitrary Linguistic standards والنقاء اللغوي، كانوا حقًا من مدرسة واحدة. ولذلك كانت نظرتهم إلى اللغة نظرة استاتيكية أو جامدة static[1].

ولا نريد بالكلام السابق أن ننحو باللائمة على اللغويين والنحاة العرب القدماء؛ فالنظرة إلى اللغة ومناهج البحث فيها يرتبطان – إلى حد بعيد – بظروف العصر، وغايات اللغويين أنفسهم، وفلسفتهم الخاصة في التحليل اللغوي.

وقد تغيرت هذه النظرة في اللسانيات الحديثة تغيرًا جذريًا، يظهره لنا تأكيد جون لاينز مثلاً أنه لا توجد معايير مطلقة للنقاء أو الصحة في اللغة، وأن لكل صيغة اجتماعية أو إقليمية في اللغة معيارها الذي يختص بها من النقاء أو الصحة. ويفسح هذا التأكيد الطريق لوصف اللغات وصفًا أكثر إقناعًا[2]، ويظهره لنا كذلك قوله:

"إن الشاغل الأول لعالم اللغة هو وصف طريقة الناس الراهنة في نطق لغتهم وكتابتها، من غير أن يفرض عليهم طريقة يلزمهم بها في الكلام أو الكتابة. بعبارة أخرى: ينبغي أن يكون علم اللغة علمًا وصفيًا descriptive لا علمًا افتراضيًا prescriptive"[3].

رابعًا: ويستخلص من الفكرة السابقة كذلك أنه لا ينبغي لنا أن نخلط بين (لغة مكتوبة) و(لغة أدبية). واللغة المكتوبة – في غالب الأمر – كما يقول فندريس – عبارة عن اللغة المشتركة. أما اللغات الأدبية فتتميز عن هذه اللغة الأخيرة في غالب الأحيان؛ لأن رجال الأدب في كثير من الأقطار، من شعراء وقصاصين يكونون طبقة منعزلة لها تقاليدها وعوائدها وامتيازاتها.

وفي هذه الحال كانت للغتهم كل خصائص اللغة الخاصة. وكانت تتطلب تهيئة وترويضًا وتثقيفًا مهنيًا[4].

---

(1) Firth op. cit., p. 147
(2) Lyons op. cit., p. 12
(3) Lyons op. cit., p. 43
(4) فندريس: اللغة، ص٣٤٠

إن اللغة المكتوبة لغة عامة أو مشتركة. وهي الوسيط في الأحداث التبليغية بين جميع أولئك الذي يتكلمونها. وهي تمثل دائمًا – كما سبق أن ذكرنا – تقاليد وقواعد محافظة. أما اللغة الأدبية فتعد لغة فنية خاصة، تمتاز بسلطة مكوناتها الجمالية وهيمنتها على الكلام. وهي أكثر ميلاً إلى التطور والتجدد.

والتطور فيها تطور داخلي؛ أي رهين تفوقها على ذاتها، بينما يرتبط التطور في اللغة المكتوبة أو المشتركة بحاجات العصر ومتطلبات الحياة العملية. وقد حاولت كوليت ستورزي Colette Stourdze رسم العلاقة بين الشفرتين والتصنيف الطبقي للمستويات اللغوية من خلال الشكل التالي (الشكل ٢):

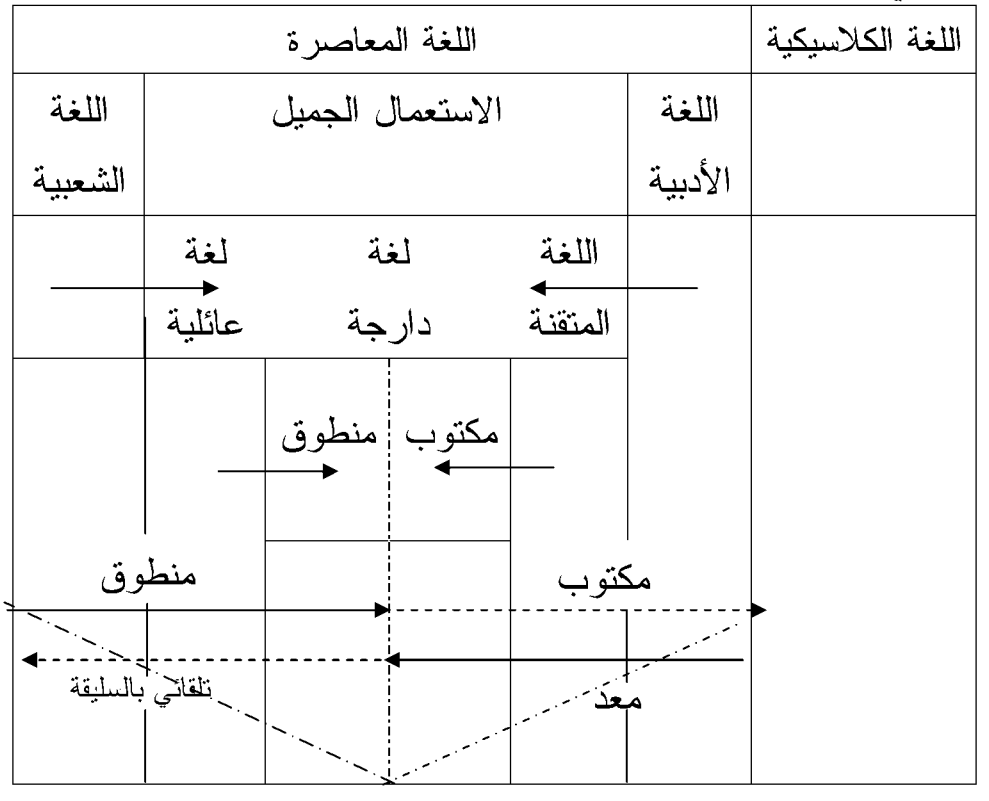

الشكل (٢)

ونلاحظ من الشكل السابق أن مجالات اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة قد عممت؛ لأن كلتا الشفرتين قد اشتملت على جميع

المستويات الطبقية للاستخدام اللغوي. وقد أشير إليها بالأسهم وأشكال الخطوط ونقاط التماس والانفصال. وتبدو الجمل الشعبية عادة جملاً منطوقة، بينما تبدو الجمل الأدبية جملاً مكتوبة. وتتداخل المستويات كما تتداخل الشفرات. وهنا نلاحظ التفاعل بين المستوى العائلي والشفرة المنطوقة، كما نجد تفاعلاً بين المستوى المتقن والشفرة المكتوبة. ويصل التقابل الحاد بين الشفرة المنطوقة والشفرة المكتوبة إلى قمته في اللغة الدارجة على وجه الخصوص.

ويذكرنا الشكل السابق بمحاولة بيير جيرو Pierre Guiraud تصنيف المستويات اللغوية Sprachregister (=Sprachniveau) = تصنيفيًا ثقافيًا اجتماعيًا إلى عدة طبقات وفقًا للشكل التالي (الشكل ٣):

الشكل (٣)

ولكننا نلاحظ كما أشار لودفج سول Ludwig Soell أن هذه المستويات غير كافية لوصف الفروق بين أنواع الشفرات[1]. ولعل ذلك راجع إلى ما يتسم به هذا التصنيف من إجمال وتعميم؛ وذلك أن كل طبقة من تلك الطبقات يمكن أن تنقسم بدورها إلى طبقات صغرى عدة. ولا ريب أن أشد صور اختلاف اللهجات عن اللغة الموحدة هي الاختلافات الصوتية، وأقلها الاختلافات المعجمية والاختلافات الصرفية – النحوية. ومازالت اللغة العامية – على نحو ما نجد في ألمانيا مثلاً – تقوم بدور اللغة المنطوقة إلى حد كبير، متفقة في ذلك مع ما درج عليه المتكلمون في المنطقة العربية في المواقف الرسمية، وإن كنا هنا في غنى عن إبراز الفرق بين حال اللغة العامية هذه واللغة المنطوقة بمعناها الاصطلاحي الدقيق.

---

(1) Soell, Ludwig, Gesprochenes und Geshriebenes Franzoesisch, Erich Schmidt Verlag, 2., Auflage, Berlin (1980) SS. 34-35

وإذا أردنا النظر إلى العلاقة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة في ضوء الشكل التوضيحي الذي قدمه تريير Trier (الشكل رقم ٤) لرأيناها على النحو التالي:

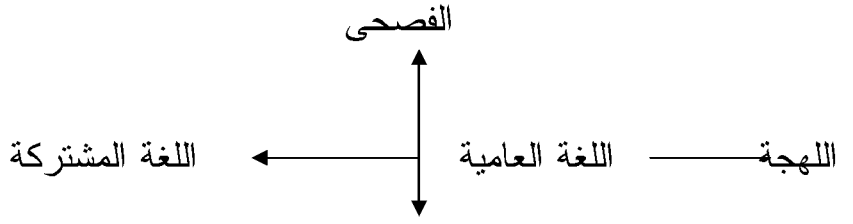

الشكل (٤)

لرأينا أن اللغة العامية ليست هي اللغة الفصحى ولا لغة الحياة اليومية. وهي – في الوقت نفسه – لا يمكن أن تكون مساوية للغة المنطوقة أو اللغة المكتوبة، مادامت اللغة الفصحى – قبل كل شئ – لغة مكتوبة، ومادامت لغة الحياة اليومية لغة منطوقة في المقام الأول[1].

ويجعل هوجوموزر Hugo Moser تراتبية المستويات اللغوية في ثلاث مراتب.

وذلك على نحو ما نرى في الشكل التالي (الشكل ٥):

---

(1) Soell, op. cit, SS. 37-38 ويفرق هافرانيك Havranek، داخل اللغة المنطوقة بين عدة وظائف مثل: الوظيفة التبليغية، والوظيفة العملية التخصصية، والوظيفة النظرية التخصصية (العلمية)، والوظيفة الجمالية. وتبعًا لذلك يفرق بين أساليب الحياة اليومية (الأسلوب غير الرسمي) وأساليب العلوم والآداب. وينبغي – بناء على ذلك – أن يحتل أسلوب الحياة اليومية، إذا راعينا التصنيف الوظيفي والأسلوبي للغة المنطوقة، مركز الوسط (مراعين في ذلك أن هذا الأسلوب يبدو في صورة الديالوج عادة:
Soell, op. cit, S. 38
وإذا اتفقنا على تقييد أسلوب الحياة اليومية بصورة الديالوج، وجب علينا أن نكون على حذر تام في اختيار نماذجنا؛ فقد يكون النموذج مميزًا لأسلوب الحياة اليومية بالتقييد السابق، كقولنا: أعطني من فضلك هذا الشئ – لا، هذا الشئ، هنا، فوق، على اليمين. وقد يكون النموذج محايدًا، كقولنا: أفسد الجو علينا إجازتنا كاملة. فهذا النموذج الأخير محايد تمامًا؛ لأنه يمكن أن يكون منطوقًا ومكتوبًا معًا.

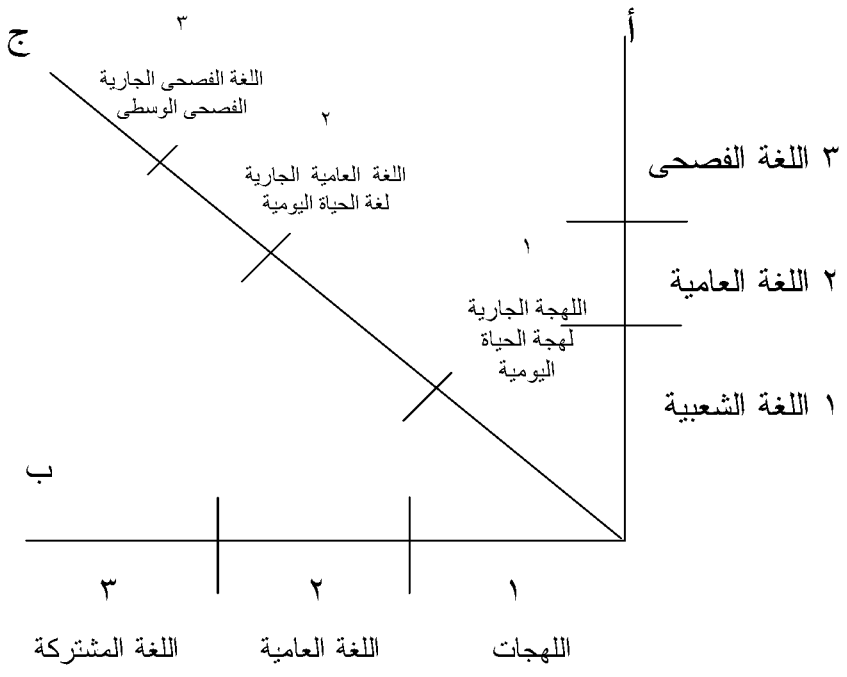

الشكل (٥)

أ = التراتب الطبقي الاجتماعي الرأسي.

ب = الفصائل المكانية الأفقية.

ج = المستويات الأسلوبية[1].

ونلاحظ أن الشكل السابق يفتقر إلى النقطة (د) التي ترتبط بالأشكال الخاصة من الاستخدام اللغوي (كاللغات العلمية، واللغات الخاصة). ونلاحظ كذلك أن اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ليس لهما في الشكل السابق مكان.

ولم يذكر موزر الاستخدام المكتوب الشائع إلا باعتباره علامة رئيسة على اللغة الفصحى. وقد رفض موزر مصطلح (لغة الكتابة Schriftsprache). وانتهى إلى أن اللغة العامية، واللغة الشعبية، تمثل كلتاهما – في الأساس – لغات منطوقة.

---

(1) Moser, H., Umgangssprache, Ueberlegungen zu ihren Formen und ihrer Stellung im Sprachganzen, in: Zeitschrift fuer Mundartforschung 27 (1960) SS, 214-232, S. 231

وقد تعرض الشكل السابق على يد لودفج سول إلى شئ من التعديل؛ لأن الأمر يدور حول بعد رباعي للشفرات. فإذا أردنا التعريف بالمنطوق والمكتوب، على نحو ما فعل لغويون آخرون، من أمثال كيلر R. E. Keller وسول Soell، وجب – إذ ذاك – أن نكون على بينة من أن الأمر هنا أمر أفضلية (فاللهجة قبل المنطوق، واللغة الفصيحة قبل المكتوب)، انظر الشكل (٦)[1]:

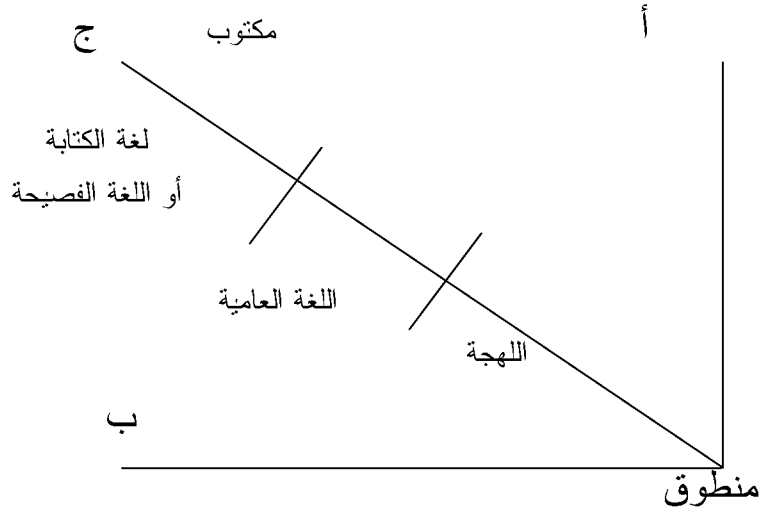

الشكل (٦)

ويمكننا أن نجد تفصيلاً أشد للعلاقة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بإزاء المستويات اللغوية عند لغوي آخر، هو ميخائيل جريجوري Michael Gregory. فقد عرف – في بحثه التنوع اللهجي – بلهجات أخرى، كاللهجات الجغرافية geographische Dialekte واللهجات الاجتماعية soziale Dialekte.

ومع تمييز جريجوري بين اللهجات، فإنه لم يميز تمييزًا طبقيًا واضحًا بين الأنواع المختلفة من كل استخدام لغوي، كما يستنتج من الشكال التالي (الشكل ٧) الذي عرضه لنا:

---

(1) Soell, op. cit., S. 40

المقولات الموقفية	المقولات السياقية	الأمثلة
١- الدور القصدي (الغائي)	مجال الخطاب	الإنجليزية التقنية
٢- علاقة الوسط	شكل الخطاب	الإنجليزية المنطوقة
٣- علاقة المخاطب	مضمون الخطاب	الإنجليزية المكتوبة
أ) شخصية	مضمون شخصي	الإنجليزية الرسمية
		الإنجليزية غير الرسمية
ب) وظيفية	مضمون وظيفي	الإنجليزية التعليمية

الشكل (٧)

وتشتمل الشفرة الصوتية على حقل التكلم بأسره، بينما لا تشتمل الشفرة المنطوقة إلا على فرع التكلم التلقائي (ويدخل في ذلك الديالوج والمونولوج). أما فرع التكلم، فيدخل في الشفرة الصوتية والشفرة المكتوبة. وأما التكلم بشئ كأنه ليس مكتوبًا، فهو لا يكون إلا شفرة صوتية + شفرة منطوقة. ويمثل القص (أو التسميع Reciting) حالة خاصة. ويدخل في هذه الحالة – كما يذكر جريجوري – حكاية الأقاصيص، وإنشاد الأشعار المتوارثة ونحوها؛ أي ما يدخل في الموروث الشعري الشفهي oral poetry بمعناه الواسع.

وما دامت هذه الأشكال الشفهية غير مكتوبة كتابة فعلية، حتى وإن اعتمدت على أصول صيغت من قبل، فإنها يمكن – من ناحية أخرى – أن تعد نوعًا من (التكلم بما هو مكتوب عقليًا Speaking of what is mentally written)[1].

وإذا خصصنا الكلام مرة أخرى عن العربية، لاحظنا أنها قد عرفت صورتها المنطوقة الحقيقية قبل عصر التدوين، ممثلة في تلقائية التكلم باللهجات المحكية وصفائها وخلوصها من التأثيرات المكتوبة. ومازال تأثير اللغة المنطوقة في العربية الفصيحة موجودًا، فيما تدلنا عليه – كما يشير سنجر Singer – نصوص العربية الوسطى وفي المراكز

(1) Soell, op. cit. S. 41

الحضارية المعاصرة[1]. وليس في منطلق سنجر تجاوز للحقيقة؛ فقد اعتمدت العربية الكلاسيكية ذاتها على لهجات محكية كما نعرف، ولم تكن أبدًا لهجة جماعة واحدة أو منطقة واحدة، ولذلك أسهمت العربية الكلاسيكية مرة أخرى في خلق لغة وسطى قديمة عن طريق صيغتها المكتوبة، وهي الصيغة التي مازالت معروفة حتى يومنا هذا بالعربية المعاصرة المعيارية Modren Standard Arabic (= MSA)، وهي لغة الأدب الحديث والنثر الصحفي والنثر المنطوق[2]. ومازالت هذه العربية المعيارية تلقى من اللهجات المحكية أو اللغات الدارجة تأثيرات قوية قد ندل على بعض جوانبها بالنظر إلى أبنية الفعل مثلاً؛ فقد تعرضت بعض أبنية الفعل فى العربية المعيارية المعاصرة إلى تطور نتج عن تأثير اللغات الدارجة، ومن ذلك فقدان همزة التعدية في صيغة (أفعل)، بأن تأتي في صيغة (فعل) – مزيدة أو مجردة – مسبوقة بالفعل (جعل)، نحو: "جعله ينتظر، جعله يتأخر، جعله يضحك"[3]. كذلك، فقد نرى أثر اللغة الدارجة في كثرة استخدام الصيغتين (انفعل) و(تفعل) في العربية الفصحى المعاصرة على غرار نظائرهما في اللغة الدارجة، لتدل على البناء للمجهول، نحو:

انزرع، انبنى، تأمن، تعرى... الخ[4].

وهذا نوع من التبادل اللغوي المتوقع دائمًا بين المستويات المختلفة للغة بعينها، وله نظائره في اللغات كلها. ولعل هذه التأثيرات الدارجة في العربية المعيارية أقل تصادمًا – كما يقول هانز فير Hans Wehr – مع

---

(1) Singer, Hans – Rudolf, Der neuarabische Sprachraum. In: Grundriss der arabischen Philologie, Bd. 1, hrsg. Von: Wolfdietrich Fischer Wies baden (1982) s. 117

(2) Mitchell, T., F., Educated Spoken Arabic in Egypt and the I Evant with special refernce to Participle and Tense, in: J. Linguistics 14, Great Britain (1979) pp. 227-228, p. 227

(3) Kropfitsch, Lorenz, Semantische Tendenzen im Neuhocharabischen in: ZAL, Heft 5, Otto Harassowitz, Wiesbaden (1979) SS. 118-136, S. 119

(4) Kropfitsch, op. cit., S. 120

روح العربية من هذا الحشد الهائل من المفردات والتعبيرات اللغوية الأوروبية التي دخلت العربية المعاصرة[1].

ومن المهم في المنطقة العربية بحث الظروف التي تخضع لها مجالات استخدام العربية الفصيحة واللهجة. ويشير فرنر ديم Werner Diem إلى ظرفين اثنين رئيسين:

أولهما: أن اللهجة تعد اللغة المنطوقة في الأساس، بينما تعد العربية الفصيحة اللغة المكتوبة في حقيقة الأمر، والآخر: أن العربية الفصيحة تحظى بمنزلة واعتبار Prestige أكبر مما تحظى به اللهجة.

وينتج عما سبق أن اللهجة – لمكانتها الضئيلة – لا تستطيع أن تحل محل اللغة الفصيحة في الكتابة. وليس العكس صحيحًا مع الكلام؛ فاللهجة لا تصلح لجميع مواقف الكلام Sprechsituationen أو لا تناسبها؛ وذلك أن المواقف الأكثر رسمية تناسبها اللغة الفصيحة الأعلى مكانة[2].

---

(1) Wehr, Hans, Entwicklung und traditionelle Pflege der arabischen Schriftsprache in der Gegenwart, ZDMG, Bd. 97, Heft 1 Leipzig (1949) SS. 16-46, S. 34

(2) انظر في تفصيل ذلك:
Diem, Werner, Hochsprache und Dialekt im Arabischen, Wiesbaden (1974) S. 35